الموضوع: مسألة تشبيه الكفار بالأنعام في الآية الكريمة رقم 179 من سورة الأعراف

بسم الله و الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله، و بعد،
قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ . فشبه فيها سبحانه و تعالى الكفار بالأنعام. و بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ اتضح وجه الشبه الذي هو الضلال. لكن السؤال الذي قد يتبادر لذهن المتلقي لكلام الله تعالى هو كيف توصَف بهيمة الأنعام بالضلال من جهة, و من جهة ثانية كيف يكون الكافر أضل منها ؟ بعبارة أخرى ما وجه الضلال عند الأنعام و كيف يكون الكفار أكثر ضلالا منها ؟

و التحري عن الجواب على هذا السؤال يقتضي أولا البحث عن ما قيل في تعريف لفظ الضلال, ثم من بعد ذلك الرجوع لبعض التفاسير القديمة و الحديثة لرؤية ما إذا طرح فيها نفس السؤال. و في حال ما إذا وجد, فماذا كان الجواب. و إلا سيبقى لكل عبد ضعيف مثلي, المقصود كغيره بكلام ربه, فسحة و مجالا للإفصاح عن الصورة الذهنية التي يوحي له بها هذا التشبيه, إلى حين الحسم في المسألة من ذوي الاختصاص. و بالفعل و بعد تصفحي لبعض التفاسير لم أجد جوابا شافيا في الموضوع, فارتأيت أن أعرض على أستاذي الكريم تلك الصورة التي انطبعت في ذهني عن ذلك التشبيه, ليشرفني بالنظر فيها و ليُكرمني بوجهة نظره فيها.

و لكن قبل ذلك, ماذا أولا عن مفهوم لفظ الضلال - وجه الشبه في الآية الكريمة - من خلال بعض المعاجم؟ ففي المحيط معنى الضلال هو : " **العدول عن الحق** وسلوك طريق الضّلال: ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ . و هو النّسيان: **العُدُولُ عن الطريق المستقيم**؛ ابتعد عن الفضيلةِ ووقعَ في الضّلال والشّرّ ﴿ **الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ** ﴾ اهـ. و في الغني معنى الضلال هو :" **العُدُولُ عَن الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ عَمْداً أوْ سَهْواً.** " اهـ.

و يمكن القول أيضا بأن الضال هو من ضل طريقه إلى هدف يتصور فيه وجود مبتغاه, و قد يعي ضلاله أو لا يعيه. و الضال أيضا هو الذي يتصور مبتغاه في شيء ما و لكن من غير أن يدري أنه ليس فيه, بل هو في غيره، كالذين قال فيهم تعالى في سورة الكهف ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ** سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ . فيسير في الطريق التي يحسبها تؤدي إلي مبتغاه و لكن حين يصل يصاب بخيبة أمل. في كلا الحالتين يشقى الضال بضلاله لإحساسه بوجود حائل دون بلوغ مبتغاه. و نجد لذلك في كلام الله تعالى أمثلة بليغة كقوله في سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا **أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ** يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً **حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ و قال سبحانه و تعالى في سورة طه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ **فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى** وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي **فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾

هذا فيما يخص معنى الضلال. و الآن نبحث في بعض التفاسير عن وجه الضلال عند الأنعام المشبه بها في الآية الكريمة رقم 179 من سور الأعراف, و التي هي موضوع هذا البحث المتواضع. و ابدأ بتفسير الشيخ متولي الشعراوي الذي فطن من دون غيره لنفس التساؤل المطروح أعلاه, و صاغه بقوله :"**ما ذنب الأنعام التي تُشبه بها الكفار؟**" ثم زاد يقول : "إن الأنعام غير مكلفة وليس لأي منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله." و أقول هنا بأن ذلك ليس باختيارها و عليه فلا ذنب لها فيه. و أضاف المفسر يقول : "هي فقط ترى المرْعَى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تتحرك بها، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة، ويهتدي الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التي أودعها الله فيه، لا بعقله" ثم جاء لبيت القصيد فعلل التشبيه الذي يعنينا في الآية بقوله : "إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حين لم يستخدم العقل كي يختار به بين البدائل." و أقول بأن الشيخ حين ينهي كلامه بهذا القول لم يجب على السؤال الذي طرحه بنفسه في بداية تفسيره و الذي قال فيه : " ما ذنب الأنعام التي تُشبه بها الكفار؟" فيبقى نفس السؤال معلقا.
و في تفسير القرطبي جاء وجه ضلال الأنعام في الآية الكريمة على أنه **اقتصارها على الأكل و الشرب.** قال في تفسيره : "فهم كالأنعام؛ أي هِمتهم الأكل والشرب". و أقول أنه إذا كان الاقتصار على الأكل و الشرب ضلالا في حق

الإنسان المخير في أفعاله و تصرفاته, فاقتصار الأنعام على الأكل و الشرب ليس باختيارها, فكيف يعتبر ضلالا في حقها؟ السؤال إذن لا زال قائما.

و جاء في تفسير الطبري لنفس الآية ما يلي : "هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يقال لها ولا تفهم ما أبصرته مما يصلح وما لا يصلح ولا تعقل بقلوبها الخير من الشرّ فتميز بينهما، فشبههم الله بها،" و أقول نعم, لأن لذلك قرينة في صدر الآية, و لكن مرة أخرى يبقى السؤال المطروح آنفا قائما و بقوة. فالأنعام غير مخيرة فيما تفعله فما ذنبها حتى يكون من نصيبها الوصف بالضلال ؟

و رأى الألوسي وجه ضلال الأنعام في كون : " مشاعرهم (أي الأنعام) متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها" و زاد يقول : "وكأن وجه الشبه مدرك مما قبل فتكون الجملة كالتأكيد له فلذا فصلت عنه ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من الأنعام لأنها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجهد في جلبها وسلبها غاية ما يمكنها" و أقول أن هذا التفسير أيضا هو حق, و لكن لا يجيب مرة أخرى على سؤالي المطابق لسؤال الشيخ الشعراوي, و الذي قال فيه " **ما ذنب الأنعام التي تُشبه بها الكفار؟**".

و أقتصر على هذه التفاسير لأن الباقي منها ينتهي لنفس النتيجة, من حيث ترى وجه الشبه بالكفار عند الأنعام في أمور لا خيار لها فيها. و بذلك يبقى السؤال المطروح قائما. و هنا يخشى بل يستحيي الفقير للعلم مثلي, أن يتقدم أمام المفسرين و يبوح بما يجول في خاطره عن المسألة. إلا أنني لا أدري إن فعلت خيرا بالتجرؤ على عرضه على أنظار أستاذي الكريم كي يشرفني برأيه فيه, راجيا من الله أن يغفر لنا و يهدينا سواء السبيل و لما يرضيه عنا.

في غياب ما يشبع فضولي, قلت في نفسي لعل **سر الجواب عن السؤال المطروح كامن في الاقتصار في هذا التشبيه على الأنعام من دون غيرها من الحيوانات**, و التي تشترك معها في مواصفات كثيرة و تختلف معها في أخرى. ففي جنس الحيوانات صنف يشبه الأنعام من حيث الخلقة و لكن له خاصيات تميزه عن الأنعام. و يتعلق الأمر بالوحوش البرية **العاشبة** كالغزال مثلا. حباها الله سبحانه و تعالى بخاصيات و مميزات تجعلها تعيش في استقلال تام عن الإنسان. فهي تعيش في البراري وسط الوحوش الضارية, و تستطيع بالفطرة التي أودعها الله فيها أن تنفلت من مخالبها إلا ما نذر. و أودع فيها سبحانه و تعالى القدرة على الاهتداء إلى حيث المراعي الخصبة فتقصدها بقطع المئات من الأميال من دون راع و لا حارس. بخلاف الأنعام التي شاء الله, رحمة بنا, أن يسخرها لنا ذليلة, فننعم بيسر تام بكل ما أودعه فيها سبحانه من نعم. قال سبحانه و تعالى في سورة يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا **أَنْعَامًا** فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ **وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ** فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ و قال في سورة المؤمنون ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ و لم يقل سبحانه نفس الشيء في الوحوش العاشبة، التي أرادها غير مذللة لنا بل نضطر لتكلف مشاق الصيد كي ننعم بما فيها من منافع.

و نشعر بفضله سبحانه و تعالى علينا حين نتأمل الوحوش البرية العاشبة كالغزال مثلا, و التي لم يشأ تذليلها لنا, فتركها مستقلة عنا. بذلك يتعذر علينا التمكن منها إلا باصطيادها و يستحيل اكتسابها و التصرف فيها على النحو الذي به نكسب و نتصرف في الأنعام التي ذللها سبحانه لنا. فنعلم و ندرك أن تذليل و تسخير الأنعام لنا ليس بشطارتنا و إنما فقط بمشيئته سبحانه و تعالى. و الشاهد عندنا هنا هو أنه سبحانه و تعالى وهب للوحوش البرية العاشبة مزية العيش باستقلال عن الإنسان فلا يكسبها بقصد استغلالها. و **لو كانت الحيوانات الوحشية عاقلة لاعتبرت الأنعام ضالة**, لأنها تأكل من يد من يكسبها و يعتني بها مع سبق إصراره بذبحها و بالانتفاع بكل ما أودع الله فيها من نعم. و هذا في نظري المتواضع هو وجه تشبيه الكفار بالأنعام من جهة في الآية الكريمة من سورة الأعراف, و الكافر أضل من الأنعام من جهة أخرى, من حيث يعيش حقيرا و ذليلا لغيره ليس قهرا كالأنعام التي ذللها الله لنا رحمة بنا, و إنما بإذلال نفسه بمحض إرادته و تفضيله لطريق الهدى عن طريق الضلال. فقال تعالى في حقه في سورة البلد : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ و قال سبحانه و تعالى في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

بهذه المقارنة مع الوحوش البرية تظهر الأنعام للعاقل ضالة. و لكنها غير مخيرة. فيكون بذلك ضلالها المفترض أهون من ضلال الإنسان الذي يختار بمحض إرادته أن يعيش ذليلا. فمن دواعي الابتلاء شاء الله أن يمنح للإنسان الاختيار بين نيل الحرية و الكرامة و الشرف و الاستقلال عن الأغيار بإفراده سبحانه و تعالى بالعبادة و هو الغني الحميد من جهة, و بين عبادة هواه من جهة أخرى فيصبح مكبلا بشهواته و يعيش من جرائها عبدا ذليلا لغيره من أمثاله الفقراء لرحمة ربهم و الطامعين في إشباع شهواتهم باستغلاله. قال تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ فبعبادة المؤمن لله الغني الحميد ينعم, على شاكلة الوحوش البرية, بالاستقلال عن بقية خلق الله, لأنه بحبه لله يطمع في نعيم الآخرة الدائم فتنكمش شهواته في الدنيا الفانية إلى مقدار الحاجيات الضرورية البسيطة و هي جد قليلة, فلا يشقى باللهث وراء طلب أكثر مما يلبي حاجياته الضرورية. و هكذا يعيش عزيزا و شريفا و مكرما بين الناس باستقلاله عمن يتصيد في غيره فرص استضعافه و استعباده و استغلاله.

فبخلاف المؤمن, يختار الكافر بمحض إرادته عبادة هواه, فيطغى فيه الطين على النفخة الربانية, و بدلا من السمو بها, يخلد إلى الأرض, يخلد بالطين إلى الطين. قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا **فَانْسَلَخَ مِنْهَا** فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ و بدلا من أن يسير في الأرض سويا على صراط مستقيم, و يكون على شاكلة الوحوش البرية اليقظة و العالية الهامة, يسير فيها ضالا مكبا على وجهه كالأنعام, فلا يرى من نفسه إلا بطنه و فرجه. قال تعالى في سورة الملك ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي **مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ** أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي **سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ و يتحول حينها قلب الضال عن حب الله فيتشبع بحب متاع الغرور, فتطغى عليه شهواته. و ما تفتأ تتحول تلك الشهوات إلى حاجيات وهمية لا حصر لها و لا ضرورة طبيعية لها. فيعبد حتما الدرهم و الدينار و غيره من متاع الغرور, و في سبيل اكتسابه يهون عليه كل شيء, فيهون عليه شرفه و كرامته و آدميته و ما فيها من نفخة ربانية أسجد الله لها ملائكته. فينحني باتجاه الطين ذليلا أمام كل من عنده المال أو غيره من متاع الغرور و هو الأفقر منه, **فيستغله استغلال الإنسان للأنعام**, و لكنه على عكس الأنعام ينبطح ذليلا لغيره بمحض إرادته, جزاء وفاقا. فالكافر بإعراضه عن عبادة الله الغني الحميد يبيع حريته و كرامته و شرفه و استقلاله بأبخس ثمن في تجارة خاسرة الخسران المبين. قال فيهم سبحانه و تعالى في سورة البقر : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

و إلى حين عثوري إن شاء الله على جواب شافي من المفسرين في شأن وجه الشبه في تشبيه ضلال الكفار بالأنعام, فهذا ما يبدو لي في الموضوع بمقارنة الأنعام بنظيرتها الوحشية و العاشبة بالبراري. و الله تعالى علي و أعلم. و أسأله المغفرة و السداد فيما جانب الصواب مما قلته.

العودة إلى الصفحة الرئيسية